الباب الخامس

التلاميذ

"العلم شئ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك،
وأنت إذ تعطيه كلك من إعطائه
البعض على غرر".

(أبو يوسف)

آلت إلى أبي حنيفة رياسة الحلقة وهو في الأربعين بعد أن ظل عاكفا على أستاذه قرابة عشرين عاما سبقتها دراساته ورحلاته، فإذا علم تلاميذه علمهم بالحكمة والموعظة الحسنة. وإن أول ما يعظهم به هو ذاته، ولقد أخذ نفسه بالدرس العميق قبل أن يتعرض للإفتاء. فليأخذهم بما أخذ به نفسه من التحصيل الذهني والاستعداد الروحي.

مرض أبو يوسف مرضا أشفق عليه منه فكان يتعهده حينا بعد حين، وسار إليه آخر مرة فرآه مقبلا بعد أن أبل فرجع ثم قال: "كنت أؤملك للمسلمين ولئن أصيب الناس بك ليمتن معك علم كثير". فلما بلغ الكلام أبا يوسف ارتفعت نفسه وعقد لنفسه حلقة خاصة وقعد عن مجلس أبي حنيفة، وقصد إليه الناس يتحلقون حوله. وافتقده الشيخ فعلم جملة الخبر. فطوى السنين القهقهري واسترجع الذكرى. نشر صفحات حياته الأولى فبدت له نفسه في نحو الثلاثين في ضحوة العمر. والدهر صفو والزمان غلام، يوم غره الغرور فتخيل ثم خال، فعم الفصال من أستاذه.وذكر أنه نكر نفسه وأوجس خيفة يوم ذلك فقعد من حماد مقعده السابق سنوات جديدة. لم يكن بعدها أغنى عن التعلم منه قبل.

هنالك علم أن التاريخ يعيد نفسه، فلم يتخل عن تلميذه، ودعا إليه صديقا سيره إليه يحمل الرسالة الآتية:

اذهب فقل ليعقوب ما تقول في رجل دفع إلى قصار (وهو الخياط الذي يقصر الثياب) ثوبا ليقصره بدرهم. فصار إليه بعد أيام يطلب الثوب فأنكره. ثم إن صاحب الثوب عاد بعد أيام يطلب الثوب ثانية فرده إليه مقصورا فهل له أجر؟ فإن قال له أجر قل أخطأت. وإن قال لا أجر له قل أخطأت.

وكان يعقوب في صباه يعمل عند قصار صبيا (وكان أبوه على ما قيل خياطا) ولعل هذا سر اختيار السؤال. فإذا عجز الأستاذ الحدث عن الجواب في مسألة له بها من كل ناحية عهد، فتعسا للعلم الذي يدعيه.

ومشى الرسول يحث الخطى إلى الأستاذ النجيب، وأخذ الأستاذ يجيب، قال له أجره. قال أخطأت. فأطرق مليا ثم قال لا أجرة له. قال أخطأت. وعميت الأنباء على الفتى فأبلس، وأسر الندامة لما رأى الخطأ. وانطلق من مجلسه انطلاق السهم إلى المرية إلى حيث ملاذه وأستاذه.

قال أبو حنيفة: أظن ما جاء بك إلا مسألة القصار.

قال أبو يوسف: بلى.

أبو حنيفة: سبحان الله! من قعد يفتي، وقعد مجلسا يتكلم في دين الله وهذا قدره، لا يحسن أن يجيب في مسألة من مسائل الإجارات!!

أبو يوسف: يا أبا حنيفة علمني.

أبو حنيفة: إن كان قصره بعد ما غصبه فلا أجرة له لأنه قصره لنفسه، وإن كان قصره قبل أن يغصبه فله الأجرة لأنه قصره لصاحبه.

أبو يوسف:!!

أبو حنيفة: من ظن أنه يستغنى عن العلم فليبك على نفسه..؟!

وبكى أبو يوسف على نفسه مدرارا وعاد إلى الحلقة بعد أن ذاق وبال أمره. ولو لم ينسه الشيطان لتذكر ما ذكره أبو حنيفة: "اعلم أن العمل تبع للعلم، كما أن الأعضاء تبع للبصر، والعلم مع العمل اليسير أنفع من الجهل مع العمل الكثير،ومثل ذلك الزاد القليل الذي لا بد منه في المفازة مع الهداية، أنفع من الجهالة مع الزاد الكثير" أو قوله: "من تكلم في شئ من العلم ونقده وهو يظن أن الله تعالى لا يسأله عنه كيف أفتيت في دين فقد سهلت عليه نفسه ودينه"، وقوله: "من طلب الرياسة في غير حينه لم يزل في ذل ما بقى" ولذكر قول النبي عليه الصلاة والسلام: "لا تعلموا العلم لتباهوا به العلماء ولا لتماروا به السفهاء ولا لتحتازوا به المجالس فمن فعل ذلك فالنار النار".

ولما تقدم حماد بن أبي حنيفة يوما ليصلي بالناس أخذ أبوه بمجامع ثوبه فأخره، وقدم غيره، فقال حماد: يا أبت فضحتني! قال: "بل أردت أن تفضح نفسك فمنعتك إذ لو صليت فقال قائل أعيدوا صلاتكم خلف هذا فسطر في الكتب ويبقى عاره إلى يوم القيامة!".

ولما أخذ يعلمه وجهه إلى دراسة علم الكلام حينا ثم صرفه عنه فجادله حماد بقوله: "ألست كنت تأمرني به". قال: "بلى وأنا اليوم أنهاك عنه"، قال "ولم"؟ قال "يا بني إن هؤلاء المختلفين في أبواب الكلام ممن ترى كانوا على قول واحد ودين واحد حتى نزغ الشيطان بينهم فألقى بينهم العداوة الاختلاف"، ثم قال: "كنا نجتمع وكأن الطير تخفق على رءوسنا.. وقد بلغني أن قوما يتكلمون اليوم فيضحكون من الكلام.. وإنما همة أحدهم أن يظفر من صاحبه بشنعة

يشنع بها عليه فإذا بلغ الكلام هذا الحد، فتركه خير". وفي عبارة أخرى من عباراته: "كنا نناظر وكأن على رءوسنا الطير مخافة أن يزل صاحبنا وأنتم تنظرون وتريدون زلة صاحبكم".

وإذا كانت هذه نظرة أبي حنيفة إلى العلم وأهل العلم وهذا إنصافه للعلم من نفسه ومن ولده. فهل يترك تلميذه ليتصدر مجلس العلم من غير علم.

كلا: بل إنه ليضيف يدا إلى أياديه عليه فيهديه. ويجادله بالتي هي أحسن، لا بقوارص الكلم، ولا بمواجهة ثقته في نفسه مواجهة المستزري لذاته، أو دراساته، ولكن بأن يبسط قدر علمه بين يديه. ليكون في حكمه على نفسه الحكمة وفصل الخطاب.

ولقد كان هذا الصنيع الذي صنعه أبو حنيفة على يد الرسول لفتة الأستاذ الموفق يهدي فتاه، فلو أفلت منه زمام التدبير أو التعبير يومئذ، لكان محتملا أن يركب التلميذ رأسه فلا يهتدي، وما كان أقرب هذه من تلك لو كان الشيخ فظا غليظ القلب، ولم يمكر بتلميذه ذلك المكر الجميل.

وما أعظم ما يؤتى حسن التعبير من ثمرات: رأى بعض الملوك كأن أسنانه سقطت فعبرها له معبر بموت أهله وأقاربه فأقصاه وطرده، واستدعى آخر فقال له تكون أطول أهلك عمرا فأعطاه وكرمه وقربه.

عاد أبو يوسف إلى الحلقة بعد أن تعلم في هذا الدرس جماع علومه فأضحى يقول: "العلم شئ لا يعطيك بعضه حتى تعطيه كلك، وأنت إذ تعطيه كلك، من إعطائه البعض على غرر".

ذلك مثل من بر الشيخ بتلاميذه وبالعلم. ولو حاولنا أن نستقصي مظاهر هذا البر لكنا كمن يحاول أن يحصي نجوم السماء.

* * *

كان قد أدبهم بالعلم وبالقدوة، وبفن آخر هو الطريقة المثلى للإقناع هو الذي يحدث الجرس الأخاذ، والرنين النفاذ،ويحيل الصعاب بسائط.. هو تقديم العلم في وعاء من الحب، وخروج الكلام من القلب إلى القلب، واستيلاء المتحدث من فوره على الروح.

وليس يستطيع ذلك إلا من كانت لديه روح من الطراز الرفيع في طاقتها أن تبعث إلى أنفس الناس شعاعا دافئا دافقا كأنه الكهرباء.

قال الحسن البصري للواعظ الذي نفرت نفسه من كلامه: "يا هذا.. إن بقلبك لشرا أو بقلبي".

وغمرت أسلوب الأستاذ سماحة النفس. كما تجلت في مناهج الدرس فسيطر على تلاميذه بالقصد والترفق، والصبر والترفع، فلم يكن يؤكل في حلقته لحم الصديق ولا لحم الخصم. وسما عن مناوأة خصومه إلى الاستغفار لهم، فملك ألباب تلاميذه وبهر أبصارهم، وأفهمهم أن العلم والمحبة صنوان يسقيان من ماء التسامح، وأن المؤاخاة فيهما أدنى إلى الهدى من الملاحاة، وأن الغيبة قذف في السامع قبل أن تكون قذفا في الغائب، وأنها على كل حال لعنة على المغتاب.

وتواضع الأستاذ لله فرفعه في أعين الناس وتلاميذه، وبصروا منه بما يبصر به المقربون، وظفروا عنده بما لا يظفر به البعداء. وأعزهم الله به وأعزه بقرباهم و "لا وحدة أوحش من العجب" كما قال عليه الصلاة والسلام.

قال عبد الله بن المبارك: قلت لسفيان الثوري يا أبا عبد الله ما أبعد أبا حنيفة عن الغيبة – ما سمعته يغتاب عدوا له! قال: هو أعقل من أن يسلط على حسناته ما يذهبها!

قال له قائل: يتكلمون فيك ولا تتكلم في أحد! قال: "هو فضل الله يؤتيه من يشاء".

ومن بعد ذلك ببضع قرون قال الحكيم الفرنسي لا بروبير: "إن التواضع بالنسبة للشخصية كالظلال بالنسبة للصورة توضحها وتظهرها وتجليها".

ولما سئل الفارابي: "أنت أعلم أم أرسطو"؟ قال: "لو أدركته لكنت أحسن تلاميذه" وقال: "قرأت السماع لأرسطو أربعين مرة وأرى أني محتاج لمعاودته".

قيل لأبي حنيفة اتق الله. فانتفض وطأطأ رأسه ثم قال: "يا أخي جزاك الله خيرا، ما أحوج الناس في كل وقت إلى من يذكرهم الله تعالى وقت إعجابهم بما يظهر على ألسنتهم من العلم حتى يريدوا الله تعالى بأعمالهم".

ولم يدخل عليه داخل وخاض في حديث الناس إلا قطع عليه خوضه.. وكان يقول: "إياكم ونقل ما لا يحبه الناس من حديث الناس، عفا الله عمن قال فينا مكروها ورحم الله من قال فينا جميلا. تفقهوا في دين الله. وذروا الناس من حديث الناس وما قد اختاروا لأنفسهم".

قيل له هذا الذي تفتينا به هو الصواب بعينه. قال: "ما أدري عسى أن يكون الخطأ بعينه".

وقال يهذب تلميذه يوسف السمتي قبل خروج يوسف إلى البصرة: "... ومن مرض من إخوانك فعده بنفسك وتعاهده برسلك.. ومن تكلم فيك بالقبيح فتكلم فيه بالحسن الجميل.. وأفش السلام ولو على قوم لئام" ثم كشف له عن السحر الذي يسحر به الفقيه مناظريه قال: "ومتى جمع بينك وبين غيرك مجلس، أو ضمك وإياهم مسجد. وجرت المسائل أو خاضوا فيها بخلاف ما عندك لم تبدلهم منك خلافا، فإن سئلت عنها أخبرت بما يعرفه القوم ثم تقول فيها قول آخر هو كذا وكذا والحجة له كذا. فإن سمعوه منك عرفوا مقدار ذلك ومقدارك، فإن قالوا هذا قول من؟ قل بعض الفقهاء، فإذا استمروا على ذلك وألفوه، عرفوا مقدارك وعظموا محلك. وإياك والحقد وإن غدروا بك، وأد الأمانة وإن خانوك".

قال أبو يوسف: كان رحمه اله يغتم لمن يشكره على شئ أعطاه إياه. ويقول اشكر الله تعالى فإنما هو رزق ساقه الله إليك.

كان هذا الخميص الصائم الذي لا تجد في داره إلا البواري يفرق أمواله بين التلاميذ وأشياخ المحدثين، ويبعث البضائع إلى بغداد فيشتري الأمتعة ويجمع الأرباح ليشتري بها حوائج المتعلمين، يقوتهم ويمونهم، ثم يدفع إليهم الدنانير قائلا: "أنفقوا في حوائجكم ولا تحمدوا إلا الله سبحانه وتعالى فإنها أرباح بضائعكم، مما يجريه اله لكم على يدي..".

* * *

فلنختصر في السرد ولندع عنان الحديث لأبي يوسف حيث يقول:

"كنت أطلب الحديث والفقه وأنا رث الحال، فجاءني أبي يوما وأنا عند أبي حنيفة فانصرفت معه فقال لي: يا بني لا تمدد رجلك مع أبي حنيفة فإن أبا حنيفة خبزه مستو وأنت تحتاج إلى المعاش.فقصرت عنه كثيرا في الطلب وآثرت طاعة أبي. فتفقدني أبو حنيفة وسأل عني فجعلت أتعاهد مجلسه، فلما كان أول يوم أتيته بعد تأخري قال: ما شغلك عنا؟ قلت: الشغل بالمعاش وطاعة والدي. فجلست. ولما انصرف الناس دفع إلي صرة وقال: استمتع بها فإذا فيها مائة درهم. وقال لي: الزم الحلقة فإذا فرغت هذه فأعلمني. فلزمت الحلقة فلما مضت مدة يسيرة دفع إلي مائة أخرى، ثم كان يتعهدني وما أعلمته بخلة قط، ولا أخبرته بنفاد شئ، وكأنه كان يخبر بها حتى استغنيت وتمولت".

كان أبو يوسف في نضارة الشباب حين وقعت هذه الوقائع. جاء إلى الحلقة تاركا حلقة محمد بن عبد الرحمن بن أبي ليلى. وقد قصصنا من قبل بعض آثاره.

ولما روى أبو يوسف هذه الوقائع كانت قد اجتمعت لديه أسباب المجد جميعا: العلم الديني، والعلم الدنيوي، وأموال تكاد لا تحصى، ووظيفة دونها الوزارة، وصداقة شخصية مع هارون الرشيد.

فلنرجع البصر إلى روايته مستقرئين: فأبو حنيفة كان يدرك بعقله ويلتزم بفعله، حديث رسول الله: "لا حسد إلا في اثنتين، رجل أتاه الله مالا فسلطه على هلكته في الحق، ورجل آتاه الله الحكمة فهو يقضي بها ويعلمها" وبهذين الحكمة والمال راح يتحدى الحسد، فيمنح المال في سبيل الخير ويقضي بالحكمة ويعلمها، منحا ليس له أول ولا آخر، وتعليما يكاد تضيق عنه حدود هذا الوجود.

وأبو حنيفة كان صاحب مال يفنيه بالسخاء، أريحيا مرهف الحس، يدرك وحي العين ودخائل النفس. يعطي من فوره، ويعطي في الميعاد، وقديما قال الحكيم العربي: "خير الخير أوحاه". وأقدم منه قول الرومان: "إن من يعطي فورا يعطي مرتين". والبدار في ذاته فضل. ثم هو يعطي في غيبة الناس فلا يشهد على العطاء إلا نفس صاحبه، في أناقة مظهر تسمو بمن يعطيه عن مهانة الابتذال.

وأي رشاقة كرشاقة اليد العليا وهي تدفع المال إلى اليد الأخرى دون رنين أو التماع. فتقدمه في صرة لا صوت لها ولا بريق منها يزعج الأعصاب، في إسماح يسكر البصر. كل أولئك وهو مع تلميذ له لا بأس عليه إن هو خلع ثياب التحرج من شأنه. لكن القريب عنده كالغريب، وكذلك الذي ترك له خمسة آلاف درهم حتى لا يرى عليه ذل استلامها! وكذلك الجليس صاحب الثوب الخلق، وذلك المدين الذي لا يجلس في ظلاله! يصنع الصنيع دائما في استخفاء وعلى استحياء، وفي تلطف كتلطف الملتمس. يقطع بأنها السليقة المطبوعة لا السجية المصنوعة، فإذا شكر أنكر الشكر ونقله إلى شيخه حماد.

قال أبو يوسف: "وكان يعولني وعيالي عشرين سنة وإذا قلت له ما رأيت أجود منك، يقول: كيف لو رأيت حمادا، وما رأيت أجمع للخصال المحمودة منه".

وأبو حنيفة يدرك مزية الاتصال الشخصي بين الأستاذ ورواده.

قال لأبي يوسف ينصحه: "وأقبل على متفقهتك كأنك اتخذت كل واحد منهم ابنا وولدا لتزيدهم رغبة في العلم" وتلك النصيحة هي الصنيع الذي طفق يصنعه طوال حياته، لا ينفك يسأل عن المريض من تلاميذه حتى يبرأ، وعن الغائب حتى يرجع. وعن غير المريض وغير الغائب، لم يعرف عنه أنه اختص ولده حمادا بعطف كما اختص تلاميذه، قال عصام: "لم يكن لأحد من الحق كما لأبي حنيفة على أصحابه. وكان الذباب إذا وقع على أحد منهم يرى مشقة ذلك على نفسه".

والذي صنعه مع أبي يوسف في مرضه والذي صنعه معه لما جلس للفتيا، لم يك إلا أمثالا ميمونة العواقب. ففي واحدة شد أزر فتى كان يومه يبشر بغده. وفي الأخرى دعاه إلى الاستزادة من العلم، فأوتي منه بسطة سمت به إلى أرفع الذرى بين أئمة الفقه عامة. ولقد طالما قدر أبو يوسف له هذه اليد بقوله: "إني لأدعو له قبل أبوي وسمعته يقول إني لأدعو لحماد مع أبوي".

هكذا كان أبو يوسف يقدمه على أبويه في حين يسوي أبو حنيفة بين أستاذه حماد وبين أبويه. وكلاهما على الإنصاف. لأن أبا حنيفة علمه على رغم أبويه.. وعلى النحو الذي كان يدركه أبو يوسف بقوله: "تمد الله أبا حنيفة برحمته. وجازاه خيرا، فإنه "أطعمني الدنيا والآخرة إطعاما".

ولئن كان أبو يوسف قد أعلن حديث عطائه إن الحديث نفسه ليشي بمقدار ما كان يتوخاه من إخفاء – والوقائع التي سردنا من قبل تنم عنه وتقرره – فكم من التلاميذ لم يعلنوا أياديه.. لقد أعلنها الحسن بن زياد إذ كان يلازم أبا حنيفة وأبوه يرهقه بقوله لنا بنات وليس لنا ابن غيرك فاشتغل بهن، وكان أبو حنيفة يدر عليه أخلاف الرزق حتى تعلم، وأعلنها يوسف بن خالد السمتي. واجتمعت كلمة الرواة على أنه كان يصبر على من يعلمه وإن كان فقيرا أغناه وأنزل عليه وعلى عياله صيبا من العطاء حتى يتعلم، فإذا تعلم قال له: قد وصلت إلى الغنى الأكبر بمعرفة الحلال والحرام. وأجمعوا أنه كان معروفا بالإفضال على كل من جمعتهم به الأسباب. ورواية أبي يوسف تحدثنا أنه كان يفعل الفعال النابه مرارا، ويسره إسرارا، غير ممنون ولا مجذوذ، ولا مصرد، مما لا ينقع الغلة.

ولو جاءه المال عن أبيه أو جده أو من أعطيات الأمراء لكانت له درجة فضل، ولوقع أجره على الله. لكن أرفع درجات الفضل أن يجمع الرجل المال بشق النفس ويؤتيه بنفس راضية من يشاء. ويزيده سموا أنه لا يوزعه صدقة يطمع بها في ثواب الآخرة، بل يدفعه للناس على أنه

وجه أولى من غيره بالإنفاق، وسبيل صالحة لعمارة الدنيا بالعلم. فالإنسانية العليا هي المبدأ والمنتهى. والأمل المشتهى. لا حسن ثواب الدنيا. ولا حسن مآب الآخرة.

ويرتفع الفضل إلى سماء ما طاولتها سماء إذ يصنعه صاحبه ليمكن الذين أعطاهم من أن يتلقوا منه عطاء آخر دونه كل ذلك العطاء المالي أو المادي. نعني به العلم الذي علمه هؤلاء التلاميذ.

هذه الوقائع ترسم أمامنا خطوط الظاهرة الأولى في حياة أبي حنيفة، وهي قيام مدرسة كبيرة منظمة، كان ممولها وصاحبها مثلما كان أستاذها. يتحمل أعباء تلاميذها المالية مثلما يتحمل أعباء تعليمهم وتهذيبهم، ويسوي بينهم وبين ولده في الإنفاق وفي التهذيب، في إخلاص للعلم كأنه العبادة.

جاء إليه رجل بكتاب شفاعة ليحدثه فقال: "ما هكذا يطلب العلم، قد أخذ الله الميثاق على العلماء ليبيننه للناس ولا يكتمونه. لا يكون العالم له خواص. لكنه يعلم الناس ويريد الله بتعليمه".

ولا يعرف التاريخ أن أبا حنيفة خلف من بعده مالا غير ما رد للناس من ودائعهم. فهو العليم بأن ثروة المفكر هي الفكر، فإذا خلف المفكرون من بعدهم أفكارا فقد أنجبوا، أما ما يخلفون من عروض وأموال فهي كسائر ما يخلف الموتى من العروض. تتناهى في النقصان قدر ما تتناهي في التداول والتعامل. وأما الفكرة فهي النور تتناهى في الانتشار كلما تداولتها الأنفس، وتتناهى في الازدهار كلما أرهقها الأذى، فلا على صاحب الفكر إذا هو أغنى الدنيا من بعده وأفقر أولاده، فالدنيا كلها ولد له. ولو رحت تسأل ماذا ترك الأنبياء لأولادهم من المال، فقد أجاب عليه الصلاة والسلام بأنهم معاشر الأنبياء لا يورثون، وأن ما يتركونه صدقة للعالمين، فإذا سألت عمن تجئ مراتبهم بعد هؤلاء من الملوك والقادة والمفكرين شعرت بالشذوذ في السؤال.

إنما يبقى الفكر، ويبقى الذكر، والفكر والذكر لا يفنيان كما يفنى المال ويزول، وإن حفل بالمال جيل فلن تحفل به الأجيال الأخرى، إلا كما حفلت بالملايين وملايين الملايين من الناس بعد إذ تطبق عليهم أجفان الثرى.

إنما الفكرة شئ إلهي فهي كائن حي لا يموت. وهي الجوهر الحر الذي يورث. ويدفع الضريبة عنه الموتى والأحياء على السواء – ولا يخلد المفكر إلا فكرته ومن اعتنقها من الأشياع والأتباع، ولهذا كان تلاميذ أبي حنيفة قطعا من نفسه، ربط بينها وبينهم كما ربط بينها وبين

أستاذه في شجرة النسب العلمي يذكرهم مع أصوله وأستاذه كلما مثل بين يدي ربه. قال: "ما صليت صلاة منذ مات حماد إلا استغفرت له مع والدي وإني لأستغفر لمن تعلمت عليه علما، ومن علمته علما".

قال له صاحبه وقد رأى بيته عريان إلا من البواري. وهو هو الذي يوزع الدنانير آلافا مؤلفة. وتعرض عليه أسباب المجد فيصدف عنها. قال صاحبه: لك عيال، قال: الله تعالى للعيال.. وإنما قوتي أنا في الشهر درهمان.. ثم قرأ: (وفي السماء رزقكم وما توعدون).

* * *

أما الظاهرة الثانية فهي أن الرجل الكبير يعني، أول ما يعنى، بأن يبني الرجال الكبار. ومن الزعماء من يؤثرون أن يخلفوا الرجال على أن يؤلفوا الكتب. وفي تاريخ الحقبة الحديثة خلد جمال الدين الأفغاني بغير مؤلفاته، وبتلاميذ سموا إلى أرفع ذرى المجد في ميادين الكفاح كالسيد عبد الرحمن الكواكبي. كما كان محمد عبده في الإصلاح الديني، وسعد زغلول في الإصلاح السياسي، وإبراهيم الهلباوي في المحاماة، مع قليل من الرجال والمؤلفات، هي السجل الذين حصر التاريخ فيه تركة الزعيم الفكري العظيم الوارد من الأفغان أو من إيران، ورود آباء الإمام الأعظم.

ولأن يبني الرجل الكبير رجلا كبيرا خير على الوجود البشري من كل آثاره، فكيف إذا بنى رجالا كبارا عظماء.

فلعل النفس الإنسانية خير ما عبرت به يد القدرة الإلهية عن الله سبحانه. والرجل الصالح يبني الممالك ويقيم المذاهب ويشرع الشرائع ويبني الرجال من جديد.

إن من الرجال من كان أجدى على الإنسانية من إحدى القارات الخمس.

لقد كان أبو حنيفة ملهما عندما احتضن أبا يوسف ومحمدا وزفر والحسن وباقي الجماعة وورثهم من نفسه وعلمه ما ورثهم، في جهد يومي متصل، يهدف إلى غاية كبرى، تتجمع عندها أهداف كل يوم، وكل تصرف، كما تتجمع الفروع وتتلاقى الينابيع في النهر الجاري، فيربو الوشل، وتصبح الحفنات من الماء فيضانا زاخرا كالسيل العرم، تزحم البحر وتعلن وجودها في أجلى مجاليه!

بهذا استطاع الرجل المفرد أن يصبح أمة وحده، وأن يجعل من الضعف الإنساني قوة عارمة، ومن العمل الفردي عمل فيلق، ومن الجهد ا ليومي جهد زمان، وبهذا أحدثت الضجة الفردية طنينا في سمع التاريخ وأنغاما في فم الزمان.

بهذا بلغت مدرسة أبي حنيفة أوجها ومهدت لها الدولة الجديدة، فإذا بالمدرسة تخرج الحكام الكبار باسم القضاة، فيضعون أيديهم على مصاير التشريع الإسلامي في شتى بقاع الدولة. الدولة. وغدت الأسماء التي تلوناها قبل، يتحلق أصحابها حول الشيخ، سجلا بأسماء القضاة الكبار والفقهاء الفحول. وبدأت حركة التدوين على طراز الإنتاج الضخم الذي بدأه محمد في كتبه وجرى على غراره الحسن بن زياد ومن تبعهما فأذاعوا فضل المدرسة في الزمان كله، وإذا بالمدرسة تخرج نساكا وزهادا إلى جوار الحكام. فربط التلاميذ كالأستاذ بين العلم والدين والدنيا، وأكدوا للناس أن الفقه يهب سعادة الدارين لمن يشاء. ويا لها من يد على العلم: أن يتخذ سبيلا إلى السعادة في الدنيا، لا تبتلا محضا أو رهبانية خالصة! وبهذا أقبل الناس على ارتياده في سبيل الله، ومن أجل الحياة، مدفوعين بالدافع الرباني والدافع الإنساني معا.

استمرت المدرسة بعد وفاة المدرس. فتولاها تلميذان كانا من الدولة الإسلامية في أزهى عصورها حضارة، أعظم رجالاتها جدارة. نعني بهما أبا يوسف ومحمد بن الحسن. وتبعهما بقية الرهط وتلاميذهم. فأضحوا في عين الدولة وأعين الناس. اتجاها فكريا جديدا هو الاتجاه المفرد الجدير بالإسلام.

* * *

كأن العناية الإلهية قد كشفت لأبي حنيفة القناع عن وجه المستقبل حين استشار أبا يوسف في قبول وظيفة القضاء ونصحه أبو يوسف بالقبول فقال له أبو حنيفة: "لكأني بك قاضيا"! وهي النبوءة التي قال عنها الرشيد فيما بعد: "لعمري إن العلم يرفع دنيا ودينا" وترحم على أبي حنيفة ثم قال: "كان ينظر بعين عقله ما لا يراه بعين رأسه".

كان أبو يوسف في السابعة والثلاثين عندما توفي أستاذه كما كان أرسطو في السابعة والثلاثين إذ مات أفلاطون، ولم يرأس أبو يوسف الحلقة كما لم يرأس أرسطو مدرسة أفلاطون، وإذا كان الغضب قد ملك أرسطو لذلك، فإن رياسة زفر للحلقة بعد أبي حنيفة لم تغضب أبا يوسف، لما كان عليه زفر من العبادة والورع والتكريم في حلقة أبي حنيفة.

تولى أبو يوسف القضاء للخلفاء الثلاثة المهدي والهادي والرشيد، وبلغ مجده أوجه في عهد الرشيد إذ نقلت له عن النظام الفارسي وظيفة قاضي القضاة أو عالم العلماء (موبذان موبذ). كان هو الذي يوصي الخليفة بتعيين القضاة في شتى أرجاء الدولة، وكان يؤاكله ويحج معه – عدلا له على بعير – ويؤمه ويعلمه. ويدخل عليه راكبا بغلته فيستقبله الرشيد بالنشيد "جاءت به معتجرا ببرده" وكانت تتقدم به المنزلة كلما تقدم به العمر.

كان معه كأرسطو مع الاسكندر، تلميذين في عمر الورود لأستاذين في خريف العمر. كتب له في كتاب الخراج يقول: "وقد كتبت لك ما أمرت وشرحته لك وبينته فتفقهه وتدبره وردد قراءته حتى تحفظه، فإني قد اجتهدت لك في ذلك ولم آلك والمسلمين نصحا...".

وبلغ من الثراء أن قدرت تركته بمليونين. وصلى عليه الرشيد عندما مات وأمر بدفنه في مقابر قريش حيث دفن من بعده ولده الأمين ثم زبيدة أم الأمين.

كان أبو يوسف من صغر جسمه يكاد يغرق في فراشه، سمعه سامع فقال: لو شاء الله أن يجعل العلم في جوف طير لفعل! لكنه كان يحفظ خمسين أو ستين حديثا في السماع الواحد ثم يقوم فيمليها على الناس!..

أتيح لفقه أبي حنيفة على يد أبي يوسف ما يتاح للمذاهب السياسية أو الاجتماعية أو العلمية من النجاح إذ يهيئ لها القدر رجالا في دست الأحكام. وهي ظاهرة تولاها المؤلفون الغربيون في السنوات الأخيرة بالعرض المستفيض.

وبهذا جعل أبو يوسف من فقه أستاذه فقها رسميا بالقضاء وبالإفتاء، وبالتدوين، وخاصة بتعيين أتباعه في كراسي القضاء. حتى صار الناس في بغداد يسمون مذهب أبي حنيفة (بمذهب السلطان) فظهر المذهب فيها بعد وفاة أبي حنيفة على المذاهب كافة. وعظمت تلك القوة – كما عبر أحد خصوم أبي حنيفة – (لأن العلم والسلطنة حصلا معا).

أو كما قال ابن حزم: مذهبان انتشرا في بداية أمرهما بالرياسة والسلطان، الحنفي بالعراق والمالكي بالأندلس.

أتاح أبو يوسف للفقه الحنفي لقاحا جدد شبابه وأكسبه المناعة، هو اللقاح العملي الذي يتجاوب مع أطوار الحياة، بما علمه من اتصاله بالخلفاء الثلاثة، وبفقهاء الأمصار، وبعد أن قطعت الدولة أكبر أشواطها في الحضارة.

وفرض أبو يوسف سلطانه في كل مكان حتى إنه ليجعل ابنه يوسف قاضيا على الجانب الغربي من بغداد وإماما للحجيج عندما حج الرشيد وفي صحبته أبو يوسف.

كان شريك خصم أبي حنيفة يحج في نفس العام وسأل عمن يصلي بالناس، فقالوا له يوسف بن أبي يوسف قال: الآن طاب الموت!

بل فرض سلطانه على الرشيد نفسه ويا لهمن سلطان على صاحب السلطان!

كان إذا حزبت الأمور فزعوا إليه فلا تقف أمامه المشكلات أو المستحيلات.

زعموا أن زبيدة غاضبت هارون الرشيد – فحلف الرشيد يمينا بالطلاق ألا تبيت ليلتها في بلد يدخل في ولايته، فلما سكت عنه الغضب فعل الهوى أفاعليه في نفسه، والتاريخ يذكر مبلغ ما شغفته حبا وشغفها، فأظلمت الدنيا في عينيه، والظلام في عين الرشيد هو العمى في أعين البلاط..! فاشتد الخطب وفدح الأمر، وكلما مالت الشمس في الأفق، ودنت حمرة الشفق، سرت في أبهاء القصر رعدة الفرق، وزاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر. ودارت أعين الحاشية كالذي يغشى عليه من الموت وتصايحوا ألا أين نصر الله؟

ألا إن نصر الله قريب. إن فقيه البلاط بين رجال البلاط! يا أبا يوسف أفتنا في أمير المؤمنين وزوج أمير المؤمنين!

فليأت أبو يوسف بالخوارق. قال:.. فلتبت زوج أمير المؤمنين بالمسجد فإنه لا ولاية لك يا أمير المؤمنين على المسجد.

والله سبحانه وتعالى يقول: (وأن المساجد لله فلا تدعوا مع الله أحدا).

ولما حج مع الرشيد أشار عليه أن يتقدم لإمامة المسلمين فصلى الرشيد ركعتين وسلم، ونادى أبو يوسف: يا أهل مكة أتموا صلاتكم فإن أمير المؤمنين مسافر ونحن قوم سفر. فنادى

رجل من أهل مكة: يا أبا يوسف نحن أعلم منك وممن علمك! فأجاب أبو يوسف: "لو كنت أعلم لما تكلمت في صلاتك!".

كانت هذه وحدها كافية لتبهت الرجل. لكنه استمر يقول: نحن مهبط الوحي وجبلنا جبل الرحمة ومنزل الحكم والعلوم والبركات من السماء. قال أبو يوسف: "ولكن ما استقرت على جبلكم بل سالت إلينا في الشعاب والأودية فاستقرت عندنا. كذلك فعل المطر".

وسيطر صاحب الخليفة على الموقف في حضرة الخليفة..!

أفلم يكن الرشيد على حق إذ يقول: "هاتوا لي مثله"!

خوصم إليه أمير المؤمنين الهادي في بستان وكان ظاهر الأمر أن البستان له، لكن الحق كان لخصمه، قال الهادي لأبي يوسف: ما صنعت في الأمر الذي نتنازع إليك فيه؟

قال أبو يوسف: خصم أمير المؤمنين يسألني أن أحلف أمير المؤمنين أن شهوده على حق، قال الهادي: وترى ذلك؟ قال كان ابن أبي ليلى يراه.

قال الخليفة أرد البستان عليه...!

لكنه إذ يحتال ليرد الهادي بستان الرجل إليه لا يحتال من أجل من دونه: شهد الفضل بن الربيع وزير الخليفة عنده يوما فرد شهادته فعاتبه الخليفة قائلا: لم رددت شهادته؟ قال: سمعته يقول أنا عبدك، فإن كان صادقا فلا شهادة للعبد. وإن كان كاذبا لكذلك.

بل إنه ليحلف الرشيد في قضية رأي أن يحلف فيه الرشيد! مع ما كان من تسامي السروات ووجوه الدولة عن توجيه الخصومات إليهم.

جلس الهدي يوما للمظالم وبجواره عمارة بن حمزة، فوثب رجل وتظلم من عمارة في شأن ضيعة معروفة بالكوفة ثمنها مليون درهم – ادعى أنه غصبها منه. قال الخليفة لعمارة ما تقول فيما ادعاه الرجل؟ قال: إن كانت الضيعة لي فهي له، وإن كانت له فهي له! ووثب وانصرف!!

وقالوا: كتبت أم جعفر إلى أبي يوسف تقول ما ترى في كذا؟ وأحب الأشياء إلي أن يكون الحق فيه كذا. فأفتاها بما صادف هواها، فبعثت إليه بحق فيه فضة، فيه حقاق مطبقات، في كل واحدة منها لون من الطيب، وفي جام دراهم وسطها جام فيه دنانير. فقال له جلساؤه: قال

رسول الله ﷺ: "من أهيدت له هدية فجلساؤه شركاؤه فيها"، قال أبو يوسف: "ذاك حين كانت هدايا الناس التمر واللبن".

ولو جاءت الهدايا أبا حنيفة لتحرج عن قبولها أو لكافأ المهدي بأضعافها.

وفي سنة ١٨٣ مات أبو يوسف وسمعه السامع يوم مات يقول: "اللهم إنك تعلم أنني لم أجر في حكم حكمت فيه بين اثنين من عبادك تعمدا، وقد اجتهدت في الحكم بما وافق كتابك وسنة نبيك ﷺ، كلما أشكل علي جعلت أبا حنيفة بيني وبينك، وكان عندي والله ممن يعرف أمرك ولا يخرج عن الحق وهو يعلمه" وعرف الناس وصيته ١٠٠.٠٠٠ مائة ألف لأهل مكة، و١٠٠.٠٠٠ مائة ألف لأهل المدينة، و١٠٠.٠٠٠ لأهل بغداد و١٠٠.٠٠٠ للبلد الذي جعل صبي القصار أستاذا للرشيد يهب مئات الآلاف! نعني به الكوفة.

أما محمد بن الحسن الشيباني فلم يكن من الخلفاء كأبي يوسف ومع أنه تتلمذ على أبي يوسف بعد وفاة أستاذهما، فقد كانت بينه وبينه وحشة في آخر أيام أبي يوسف حتى وفاته. ولي قضاء الرقة للرشيد ثم عزل ثم عاد الرشيد فاستقصاه واستقضاه.

توفر محمد على التدوين فجمع فقه أبي حنيفة وأبي يوسف وفقهه هو في كتب هي السجل التاريخي للمذهب، أما الكتب المنسوبة إلى أبي حنيفة "العالم والمتعلم" وكتابه لعثمان البتي عن الإرجاء و"الفقه الأكبر" ووصية أبي حنيفة إن صحت، فهي تدور حول العقيدة.

أما كتب أبي يوسف فقد قيل إنها بلغت أربعين كتابا لم يصل أكثرها إلينا، وبحسبه شاهدا على عبقريته كتابه "الخراج" الذي كتبه للرشيد يبصره بالحكم جوابا لطلبه.

وأما كتب محمد فهي المعروفة بظاهر الرواية "السير الكبير والسير الصغير" في فقه الحرب و"الجامع الكبير" وهو في التفسير والأصول و"الجامع الصغير"، وفيه نحو ١٥٣٢ مسألة، والمبسوط أو "الأصل" وسمي كذلك لسبقه الكتب الأخرى في التصنيف والزيادات وزيادة الزيادات والكيسانيات والرد على أهل المدينة "وهو كتاب رواه الشافعي" وقد قرئ أكثرها على أبي يوسف.

وإذا كان الفقه الحنفي قد دان به الثلثان من أهل الإسلام، وغمر العراق وفارس والهند والصين وتركيا وشرقي أوروبا وبقاعا من روسيا وأصبح مذهبا رسميا في مصر، أو كانت نهضة التدوين وتبويب الموسوعات قد دبت فيها الحياة، فإن لهذه الكتب الصغرى في عددها تلك اليد الكبرى في آثارها.

إن المبسوط وحده يقع في ستة أجزاء كل جزء ٥٠٠ صفحة من ذوات القطع الكبير..! كان الفقه بحاجة إلى الصون فحماه محمد بذلك السور المنيع الذي تتألف حجارته من اختلاط أحرف الهجاء بالورق.

كان عمل أبي يوسف لخدمة الفقه بالوظيفة لازما للفقه عند النشأة الأولى ليأتلف العلم مع العصر، ومع الواقع، ولتحمله إلى الدنيا اليد السحرية المسماة بيد السلطان، وأما عمل محمد فكان لازما ليوجه الفقه في طريق الخلود فتراه العصور جميعا.

ولما عين محمد في القضاء شاء زميله وأستاذه "قاضي القضاة" أن يكون في الرقة بعيدا عن بغداد، فأدناه من الخلود من حيث أقصاه عن السلطان. إذ هيأ له نجاة من زحمة العاصمة ولجاجة الحكام، فتفرغ للعلم حتى عهد في أعماله الشخصية إلى وكيل ليضطلع هو بأمانة التأليف، وكان يحيل أهله على الوكيل ويقول: "لا تسألوني عن حاجة من الحوائج فإن فيها شغل لقلبي وخذوا ما بدا لكم عن وكيلي فإنه أفرغ لقلبي".

ومن قبل محمد شغل ابن شهاب الزهري بجمع الأحاديث عن أهله حتى قالت زوجته عن مؤلفاته: "هذه الكتب أشد علي من ثلاث ضرائر".

رحل محمد إلى المدينة في حكم المهدي (سنة ١٥٨ إلى سنة ١٦٩) ليستقي العلم من مالك بن أنس وروى عنه "الموطأ" وتعتبر روايته للموطأ من أجود رواياته. واختلط بالكسائي في عهد الرشيد فعلمه الكسائي اللغة وعلم الكسائي الفقه.

قالوا: جلس الكسائي يوما يداعب الرشيد فدخل عليهما قاضي القضاة فقال للرشيد هذا الكوفي قد استفرغك وغلب عليك. فقال الرشيد: يا أبا يوسف إنه ليأتيني بأشياء يشتمل عليها قلبي. لكن جاب الرشيد عن الكسائي لا يشفيه، ولا يكفيه، فأقبل على أبي يوسف يقول: يا أبا يوسف هل لك في مسألة؟ فقال: "نحو أم فقه"؟ فقال: بل فقه! فضحك الرشيد حتى فحص برجله وقال للكسائي: تلقي على أبي يوسف فقها!! قال الكسائي: نعم. يا أبا يوسف ما تقول لرجل قال لامرأته أنت طالق أن فتحت الدار (وفتح الهمزة في أن) قال أبو يوسف إذا دخلت طلقت. قال أخطأت يا أبا يوسف فضحك الرشيد وتساءل كيف الصواب؟ قال الكسائي: إن قال أن وجب الفعل ووقع الطلاق وإن قال إن فلم يجب ولم يقع الطلاق!

قالوا: فكان أبو يوسف بعدها لا يدع أن يأتي الكسائي إلى الرشيد.

ولما حشر الشافعي إلى الرشيد لمحاكمته بتهمة التشيع عمل محمد في إنقاذه. وتوثقت بينهما عرى الود فبهر لبه.

وقف رجل على الشافعي فسأله عن مسألة فأجابه فقال له الرجل يا أبا عبد الله خالفك الفقهاء قال: "وهل رأيت فقيها قط إلا أن تكون رأيت محمد بن الحسن! فإنه كان يملأ العين والقلب. وما رأيت مبدنا قط أذكى من محمد بن الحسن) وقال فيه: "كان محمد إذا أخذ في المسألة كأنه قرآن ينزل. لا يقدم حرفا ولا يؤخر" وقال: "ليس لأحد على منة في العلم ما لمحمد علي".

وكان يجيئه وقد ركب محمد فيرجع محمد إلى منزله ويخلو به إلى آخر الليل.

قرأ الشافعي كتب محمد، بل حمل منها وقر بعير كما قال. فتعلم منها فقه أبي حنيفة وفقه الأقدمين. فها هو ذا محمد تلميذ أبي حنيفة ينهل من مالك وينهل منه الشافعي الذي علم ابن حنبل، فتتلاقى عنده المذاهب الفقهية الأربعة، ويروي علومه فيرتوي منها الأئمة والمتفقهة والناس جميعا.

روى الملك عيسى بن الملك العادل الأيوبي أن عالما يهوديا كان بالبصرة فطلب كتاب الجامع الكبير لمحمد، فلما وقف عليه قال: من بحث عن دينه مثل هذا ودقق هذه المسائل ثم لم يدعها لنفسه وإنما نسبها لنبي أشهد أنه على حق. فأسلم.

قال الملك: إن هذا يعد من بركات محمد رحمه الله بما صنعه. ومسائله معروفة. فإن من أراد أن يقرأه ويفهمه يحتاج أن يكون عالما بارعا بستة علوم: أولها الكتاب العزيز، والآثار والفقه والنحو واللغة والحساب، ومن لم يكن مجيدا لهذه العلوم لم يعرفه إلا تقليدا.

أقبل الرشيد يوما على جماعة فيهم محمد بن الحسن فقاموا إلا محمدا، ومضى الرشيد لطيته ثم جاء الآذن يقول: محمد بن الحسن. فوجبت القلوب، فلما كان بين يديه سأله لماذا انفرد بالجلوس عندما قدم عليهم فقال: "كرهت أن أخرج عن الطبقة التي جعلتني فيها. إنك أهلتني للعلم فكرهت أخرج منه إلى طبقة الخدمة التي هي خارجة منه، وإن ابن عمك ﷺ قال: (من أحب أن يتمثل له الرجال قياما فليتبوأ مقعده من النار) وإنه إنما أراد بذلك العلماء..." قال الرشيد صدقت يا محمد.

اعتقد محمد أن العالم لا يقف للخليفة ويا لها من عقيدة! لكن الأسمى من العقيدة هو العمل بها ولا سيما في حضرة الرشيد وضد الرشيد.. وعلى أعين الناس. ومن حقه أن يقف الناس له ولو كانوا هم العلماء.

لقد كان الرشيد حفيا بالعلم ومن حقه أن يحتفل به العلم.

بلى: كان رضى الرشيد بموقف محمد كعالم، وبعدم وقوفه كفرد من رعاياه، يعدل تماما موقف محمد من الرشيد، كلاهما كرم العلم وكلاهما يستحق التكريم.

وكان الرشيد صادق الرضا عن محمد فلما علم بكتابه "السير" بعث الأمراء – أولاده – لسماع دروسه فيه.

ولما خرج يحيى بن عبد الله العلوي على الرشيد ثم تصالحا على (عهد) بالأمان أخذه الفضل بن يحيى البرمكي من الرشيد سنة ١٨٦ واستنزل به يحيى من معقله، وتوشجت المودة بين يحيى والرشيد زمانا حتى رفع السعاة عن يحيى ما يريب، فسئ به وضاق به ذرعا ثم حبسه وهم به يريد قتله، لكن العهد كان مسئولا، و"المسلمون عند شروطهم" كما قال الرسول عليه الصلاة والسلام، فجاء الرشيد بالعهد يقلبه لعله يجد مخرجا، ودعا محمدا وأقرأه العهد وسأله هل هو صحيح؟ فأجاب محمد: صحيح. وراح الرشيد يجادله وهو لا يتحول!

بل قال محمد: ما تصنع بالأمان، لو كان محاربا ثم ولى كان آمنا!

وطلب الرشيد فقيها آخر هو أبو البختري فقرأ الرجل العهد، وأفتى بنقض العهد، بل أقبل يعدد وجوه النقض، وكانت نهاية فتواه، وإن شئت فقل غاية فتواه، أن صدر نطق الرشيد: بلى وأنت قاضي القضاة!

ذلك أبو البختري الذي اختصه ابن حنبل بوصف أنه "كذاب".

رأى الرشيد وهو يطير الحمام فقال الرشيد: هل تحفظ في هذا شيئا؟ قال: حدثني.. عن عائشة أن النبيى ﷺ كان يطير الحمام..!

وقف محمد هنا في وجه الخليفة لأنه ليس ممن ينقض العهد..!

ولم يقف هنا إذ جاء الخليفة لأنه يحمل كرامة العلماء.. وهناك رضى الرشيد لأنه آثر كرامة العلم على مظاهر الدنيا، وهنا لم يرض لأن مصلحة الدولة كانت ضد العلم وضد العهد، وكان هارون صاحب دولة، فرأى من أجل دولته ما رأى.

صنع الرشيد ذلك مع أنه كان يبعث إلى ولاته يأمرهم بتقوى الله وبالرجوع إلى الفقهاء، وكافة إنفاقه على العلماء إغداقا، يعهد بأولاده إليهم، بل كان يخدمهم. وفد عليه أبو معاوية الضرير وجئ بالطعام فأكل بين يديه. وصب الرشيد الماء على يديه حتى غسلهما. وقال: أتدري من يصب الماء عليك؟ قال: لا. قال: أمير المؤمنين. قال أبو معاوية: "أكرمك الله كما أكرمت العلم ورفع درجتك يا أمير المؤمنين في الآخرة".

وفي سنة ١٨٩ مات محمد بالري وهو في صحبة الرشيد ومات معه صديقه الكسائي في نفس الرحلة. ولما دفنا قال الرشيد: "دفنت اليوم اللغة والفقه".

* * *

هذان هما أبو يوسف ومحمد صاحبا أبي حنيفة يجري اسمهما في التاريخ على أنهما "الصاحبان".

أما الصاحب الثالث فهو زفر بن الهذيل كان مقدما في مجلس الإمام وبقى طيلة عمره مشتغلا بالعلم، ولما عرض القضاء عليه أبى فأكره على القضاء واختفى، وهدمت داره فخرج، فأصلحها ثم أكره وهدمت داره ولم يقبل. ولم يخض الغمرات إلى الدنيا فلم يتعرض إلى ما تعرض له الصاحبان "أبو يوسف ومحمد".

كان أقيس الحنفية، وكان أكبر التلاميذ سنا فرأس الحلقة لما هوى النجم ولما مات في الثامنة والأربعين من عمره خلفه في رياسة الحلقة أبو يوسف.

شك رجل في طلاق زوجته فسأل شريكا القاضي فقال: طلقها ثم راجعها. وسأل الثوري فقال: إن كنت قد طلقتها فقد راجعتها، ثم جاء إلى زفر فقال: هي امرأتك حتى تتيقن من طلاقها.

ذلك بأن من الأصول التي وضعها أستاذه أن الشك لا يزيل اليقين كمن توضأ ثم شك في الحدث فهو على وضوئه.

وعرض الرجل على أبي حنيفة هذه الأقوال فقال: أما الثوري فقد أتاك بالورع، وأما زفر فأتاك بعين الفقه، وأما شريك فهو كرجل. قلت: لا أدري أصاب ثوبي بول أم لا. فقال: بل على ثوبك فاغسله!

فلم يغفر شريك ذلك وأشباهه لأبي حنيفة حتى بعد أن مات..

شهد النضر بن إسماعيل وحماد بن أبي حنيفة لدى شريك، فرد شهادتهما وراح الناس يستفسرونه عن رد شهادة النضر. فقال: لأنه يبيع الصلاة "إذ كان إماما في المسجد يتقاضى في الشهر دينارين" فقال له النضر، وأنت تبيع القضاء: "إذ كان قاضيا بأجر" فأجابه شريك فإذا شهد عندك فلا تقبل شهادتي!!

وجمع حماد جماعة وأتوا شريكا فلما بصر بهم قال: وراءك يا حماد.. لست كالنضر. أنت وأبوك تزعمان أن إيمان شر أهل الأرض كإيمان خير أهل الشماء.

كان زفر يغربل الأحاديث غربلة، ويأتي بالدليل من غير حشو فإذا ناظر أبا يوسف فكا،ه يأخذ بحلقومه. كان يناظره مرة وهو مستند إلى اسطوانة المسجد منتصبا وكان أبو يوسف كثير الحركة أما هو فكان لا يتحرك بل يقول: هذه أبواب كثيرة اركض في أيها شئت، وانتهى الأمر بأبي يوسف إلى أن جلس بين يديه.

ولما تزوج دعا أبا حنيفة إلى عرسه، والتمس منه أن يخطب فقال عنه الإمام الأعظم: "هذا الإمام من أئمة المسلمين في حسبه وشرفه وعلمه".

وفي سنة ١٥٨ كان أسبق زملائه إلى لقاء إمامهم في الرفيق الأعلى.

أما الحسن بن زياد اللؤلؤ فقد تتلمذ بعد وفاة الإمام على أبي يوسف ومحمد واقتدى بمحمد فكتب: "المجرد لأبي حنيفة، وأدب القاضي. والنفقات والفرائض والوصايا. والخصال" وعمل في القضاء. وفتحت عليه أبواب السماء برزق منهمر فأضحى – وهو الذي كان يأمره أبوه أن يكف عن مجلس أبي حنيفة ليمير بناته – أضحى له مماليك يكسوهم مما يكسو به نفسه.

كان يخشى الله في فتواه. أفتى رجلا فتوى تبين خطأها بعد انصرافه ولم يكن معروفا لديه فاكترى مناديا يقول: إن الحسن أخطأ في تلك المسألة حتى عاد إليه الرجل فأعلمه بخطئه ورد الرجل إلى الحق.

وكان إذا جلس للحكم ذهب عنه التوفيق فإذا قام من مجلس القضاء عاد إلى ما كان عليه من الحفظ!! فاستعفى من القضاء.

وفي سنة ٢٠٤ ترك الدنيا.

وأما حماد بن أبي حنيفة فقد تولى قضاء الكوفة فبغداد كلها فالبصرة، تخرج ابنه إسماعيل عليه وعلى أبي يوسف وعلى الحسن وتولى القضاء بالجانب الشرقي ببغداد وبالبصرة والرقة.

وخلى يوسف بن خالد السمتي للعبادة.

أما الأخوان مندل وحبان فقد كان لهما شأن. أشخصهما المهدي إليه من الكوفة مرة فلما دخلا عليه ناداهما: أيكما مندل – وكان أصغر وأشهر – قال مندل موجها نظر الخليفة: هذا حبان.

ويحيى بن زكريا مات قاضيا على المدائن للرشيد.

وتولى القاسم بن معن قضاء الكوفة بعد شريك حسبة لله بغير أجر، ذكروا من مناقبه أنه كان أحد الذين قال لهم أبو حنيفة: أنتم مسار قلبي وجلاء حزني.

وتولى حفص بن غياث للرشيد قضاء الكوفة ثلاثة عشر عاما وقضاء بغداد عامين فحبس المرزبان وكيل زبيدة في دين!

كان جالسا للقضاء فجاءه رسول الخليفة يدعوه فقال: لا حتى يفرغ الخصوم. فلما فرغوا لبى دعوته.

ولما عينه أبو يوسف في قضاء الكوفة بعث إلى أهلها يقول: يا أهل الكوفة انشروا دفترا لتكتبوا نوادر قضاياه.

وأما عبد الله بن المبارك فكان إماما في الفقه وبطلا في المعارك. كانت أمه خوارزمية، وأبوه تركيا، وكان من أكثر التلاميذ رواية للأستاذ.. ولما مات أمر الرشيد وزيره بأن يأذن للناس بأن يعزوا فيه أمير المؤمنين.

وهذا أسد بن عمر البجلي: يروي عنه الإمام أحمد بن حنبل. تولى القضاء للرشيد ببغداد وواسط.. وقيل تزوج ببنت الرشيد.

وتولى علي بن مسهر قضاء الكوفة.

وهذا داود الطائي أرفع الناس صوتا في الحلقة. ينقطع إلى العبادة ويخرج من الدنيا في حياته!.. أرسلت إليه بدرة فيها عشرة آلاف درهم يستعين بها على الدهر فأعادها لمصدرها، وردها المرسل مع بدرة تماثلها وغلامين قال لهما: إن قبل البدرتين فأنتما حران. فذهبا إليه قالا: إن في قبولك عتق رقابنا. قال: إني أخاف أن يكون في قبولها وهق رقبتي في النار. رداها إليه وقولا له يردها على من أخذها منه أولى من أن يعطيني أنا..

أولئك تلاميذ من تلاميذه الذين تحدث عنهم بما رواه حفيده إسماعيل بن حماد: "أصحابنا ستة وثلاثون رجلا. ثمانية وعشرون يصلحون للقضاء، وفيهم ستة يصلحون للفتوى، وفيهم اثنان يصلحان يؤدبان القضاة وأصحاب الفتوى وأشار إلى أبي يوسف وزفر".

كم بذل الفقهاء للترجيح بين أقوالهم المختلفة في مذهبهم! وفي سبيل وضع نظام الأسبقية ضاع جهد كثير فقيل وقيل:

وقيل بالتخيير في فتواه إن خالف الإمام صاحباه

وقيل من دليله أقوى رجح وذا لمفت ذي اجتهاد الأصح

هؤلاء هم أصحاب أبي حنيفة وتلاميذه. جاءوا إلى الحلقة غفلا مغمورين. منهم الحفاة والعراة: ليصيروا من بعد قضاة وقضاة للقضاة، بل عمدا للفقه الإسلامي، ملأ أفئدتهم يقين الرسالة التي نقلها إليهم الأستاذ العظيم فأضحى ما حملوه منها عنصرا أساسيا في نهضة الدولة وصلاح الدنيا. بما فيه من طابع عملي وعمق فكري. حتى قال عنهم عمرو بن بحر الجاحظ بعد قرن من الزمان وهو يتحدث عن اعتزام المتعلمين بالعلم: ".. قال عمر: تفقهوا قبل أن تسودوا، وقد تجد الرجل يطلب الآثار وتأويل القرآن ويجالس الفقهاء خمسين عاما وهو لا يعد فقيها ولا يجعل قاضيا وما هو إلا أن ينظر في كتب أبي حنيفة، ويحفظ كتب الشروط في مقدار سنة أو سنتين، حتى تمر ببابه فتظن أنه من بعض العمال. وبالحري ألا يمر عليه من الأيام إلا اليسير حتى يصير حاكما على مصر من الأمصار أو بلد من البلدان..".

كانوا كأطيار الفجر يبشرون بالنور الذي سيجئ.. يدركون وهم بحذاء أستاذهم أنهم ارتفعوا عن مستوى الناس، ويحسون وهم معه ما نحسه نحن الآن معهم وما كان يستشعره (ميشيل أنجلو) عندما كان يقرأ هوميروس فيقول: "كلما قرأت هوميروس نظرت إلى نفسي لأتحقق مما إذا كنت قد ارتفعت عشرين قدما فوق الثرى..!"